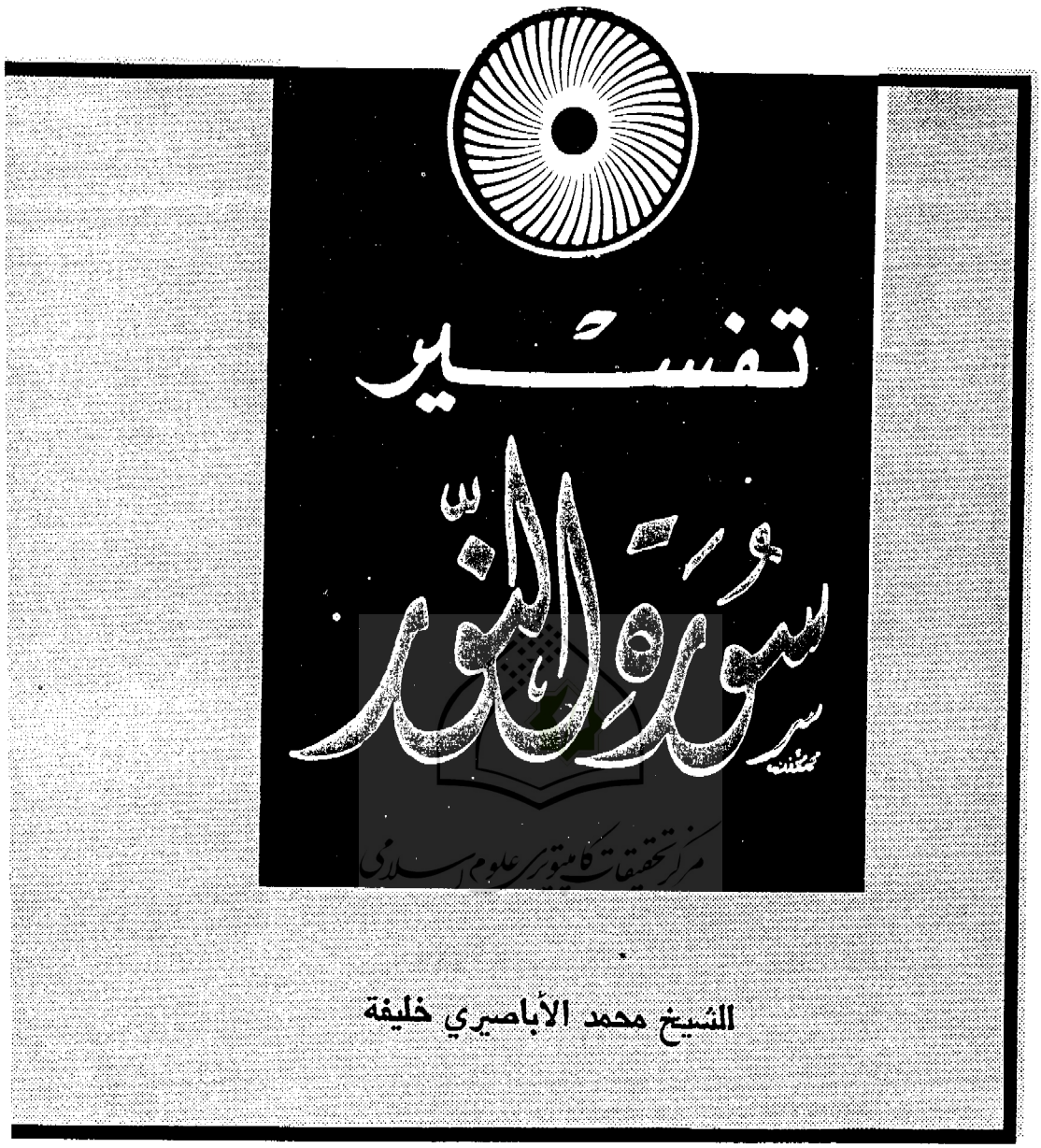

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تفصـــــيل المعاني :

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين) :

هذه الآية تصف المنافقين بأنهم يعلنون بالسنتهم أنهم مؤمنون بالله ورسوله وممتثلون ما جاءا به .. يقولون ذلك بأفواههم من غير ان تستشعر به قلوبهم ، أو تطمئن إليه نفوسهم ، ومن ثم فلا يوجد لهذا القول اثر في سلوكهم .. فهم ينصرفون عن التأدب بأدب الإسلام من بعد قولهم آمنا ، وتتناقض افعالهم مع اقوالهم .. وما اولئك بالمؤمنين ، بل هم كاذبون في ادعاء الإيمان .. فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم توافق افعالهم اقوالهم ، وواقع اعمالهم ينبعث

قال الله تعالى :

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين • وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون •وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين • أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون • إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون• ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون •وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون • قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين •

سورة النور / ٤٧ — ٥٤

من نور إيمانهم طاعة لأوامر الله ، واجتنابا لنواهيه .

(وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون • وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) •

تكشف هذه الآية عن نفسية المنافقين ، وأنهم لا يريدون الحق ، ولا يخضعون للعدل ويخالفون مدلول ادعائهم للإيمان ، حين يدعون ليتحاكموا بشريعة الله على يد رسوله — صلى الله عليه وسلم — حيث يعرض فريق منهم عن حكم الرسول إذا كان الحق عليهم لغيرهم ، لأنهم يعلمون أن رسول الله لا يحيد عن العدل ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالصداقة أو العداوة .. اما إذا كان الحق لهم على غيرهم فهم يسرعون إلى التحاكم

لرسول الله راضين خاضعين ، لثقتهم أنه يحكم لهم بالحق طبقا لشريعة الله التي تقيم العدل ، وتصون الحقوق بين الناس .

وفي سبب نزول هذه الآية أخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو محق اذعن وعلم أن النبي — صلى الله عليه وسلم — سيقضي له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — اعرض فقال : انطلق إلى فلان ، فأنزل الله **(وإذا دعوا إلى الله ورسوله)** . الآيـــة .

وذكر الواحدى انها نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر ، كان بينه وبين يهودي حكومة ، فدعا اليهودي المنافق إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليحكم بينهما . فقال المنافق لليهودي : إن محمدا يحيف علينا . ولكن بيني وبينك كعب بن الأشرف . فنزلت .. وما تضمنته الآية عام في المنافقين على اختلاف الزمان والمكان إلى يوم الدين .

(افي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون) .

من المعلوم ان المنافقين في قلوبهم مرض هو الكفر بالله ، والارتياب في القرآن الكريم ، وهذا المرض يدنس الفطرة ، ويخرج بها عن سنن العـدل وجادة الاستقامة ، فلا تتذوق حقيقة الإيمان ، ولا تسير عـــلى قواعده .. فالاستفهام بقوله تعالى : (**افي قلوبهم مرض ام ارتابوا**) استفهام تقريري يحمل معنى الذم والتوبيخ على كفرهم وشكهم ، والمعنى : انهم كذلك ، وانما ذكر ما فيهم بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمهم .. والاستفهام في قوله تعالى : **(ام يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله)** استفهام استنكاري يحمل معنى السخرية بهم ، والتعجب من حالهم ، اذ كيف يخافون الظلم والجور عليهم من الله ورسوله وهم يعلمون ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحكم بالعدل ولا يحيف على احد .. بدليل انهم يعرضون عن التحاكم إليه حين يكونون ظالمين فرارا من الحكم عليهم ، ويأتون إليه مسرعين طائعين حين يكونون محقين رغبة في الوصول إلى حقهم ، فهم لا يخشون في حـــكم الله جورا ولكنهم لا يريدون الحق ، ولا يطيقون العدل ، فينتحلون المعـــاذير لإعراضهم .. ومن ثم كانوا أهلا لان يسخر بهم ، ويتعجب من أمرهـــم .

أما سياق الاستفهام في الأمور الثلاثة ، مع ما تلاه من قوله تعالى : **(بل اولئك هم الظالمون)** فهو يفيد أن الاستفهام جاء ينفي أن ما دخل عليه — من وجود مرض في قلوبهم ، أوشك في كتاب الله أو مخافة ظلم في الحكم — هو الذي حملهم على إعراضهم عن حكم رسول الله . إنما الحامل لهم على ذلك هو شدة ظلمهم لأنفسهم وللناس ، وكراهيتهم للحق ، وذلك لأن **(بل)** في قوله تعالى : **(بل اولئك هم الظالمون)** حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعـــده .

(انما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) .

بعد أن بين الله موقف المنافقين من الإعراض عن التحاكم إلى رسول الله حين يكونون ظالمين لغيرهم ، والمسارعة إليه مختارين حين يكونون أصحاب حق يطلبون نواله ، ذكر في هذه الآية أن المؤمنين الصادقين يقفون موقف السمع والطاعة مختارين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، سواء أكان الحق لهم أو عليهم . فهم حين يقولون : سمعنا وأطعنا . يقولونها تعبيرا عما في قلوبهم ، وتصدقها أفعالهم ، وترضاها ضمائرهم فهي كلمات صادقة تولدت عن الإيمان واليقين ، وانبعثت من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحق وما عداه باطل ، وهو العدل وما عداه ظلم ، وهو الخير وما عداه شر .. ومن ثم كانوا هم — دون سواهم — المفلحين في دنياهم وآخرتهم ، لأنهم خضعوا لحكم الله راضين ، فنالوا — بذلك — السداد والرشاد ، وابتعدوا عن الأهواء المضلة .. ولأنهم استقاموا على منهج واحد وضعه العليم الخبير بما يصلح أمور الناس ، فلا عوج فيه ولا شطط ولا قصور ، لا تلتوي الطريق بمن يعمل به ، ولا تتشعب السبل بمن يسير في ضوئه .

وفي ذكر موقف المؤمنين في أمر التحاكم لله ولرسوله على هذه الصورة الرائعة من السمع والطاعة . بعد ذكر موقف المنافقين في الأمر ذاته على تلك الصورة المزرية من الإعراض والنفور حين يكونون ظالمين ، ومن الإقبال السريع حين يكونون محقين .. دلالة على إعلاء شأن المؤمنين ، وحطة قدر المنافقين .

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) ..

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن السمع والطاعة من المؤمنين في الاحتكام لله ورسوله تأتي هذه الآية فتبين أن من أطاع الله في كل أمر ونهي ، وخشي الله . فلم يرتكب ما يغضبه ولم يقصر فيما يرضيه ، واتقاه . فراقبه في كل صغيرة وكبيرة ، وعبده إجلالا لذاته وإعظاما لقدره وحياء منه . بالإضافة إلى الخشية والخوف من عذابه ، فقد اختص بالفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة **(وعد الله ولن يخلف الله وعده) .**

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تفعلون) .

بعد أن قابل الله بين موقف المنافقين الذين يدعون الإيمان والطاعة — في التحاكم إلى الله ورسوله ، من الإعراض والنفور إذا كان الحق عليهم ، والإقبال السريع إذا كان الحق لهم .. وموقف المؤمنين الصادقين من الطاعة والامتثال لحكم الله عن رضى واختيار سواء أكان الحق لهم أم عليهم . جاءت هذه الآية استكمالا للحديث عن المنافقين ، تبين أنهم كانوا يمعنون في التضليل ، فيقسمون لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالغين غاية جهدهم في توكيد قسمهم : لئن أمرهم بالخروج من أموالهم وديارهم — لتنفق في سبيل الله — أو أمرهم بالخروج إلى القتال والغزو ليخرجن .. وقد أمر الله رسوله أن يقول

لهم على سبيل التهكم بهم والسخرية من فعلهم : لا تقسموا . طاعة معروفة . اي لا تحلفوا فطاعتكم معروفة بصدقها لا تحتاج إلى قسم . وذلك كما يقول الإنسان لمن هو مشهور بالكذب في اقواله ـــ تهكما به ـــ : لا تحلف لتأييد قولك ، فكلامك صادق لا يحتاج إلى دليل . وقيل إن الله امر رسوله أن يقول لهم : لا تقسموا فأنتم كاذبون في قسمكم لأن طاعتكم معروفة بأنها طاعة قولية لا فعلية لطول ما عهد عليكم من كذب ، ومهما اقسمتم فأمركم معلوم لله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء **(إن الله خبير بما تفعلون)** . قال المفسرون : لما نزل في هؤلاء المنافقين ما نزل من بيان كراهتهم لحكم الله قالوا للنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ:والله لو امرتنا ان نخرج من ديارنا واموالنا ونسائنا لخرجنا فكيف لا نرضي حكمك ، فنزلت هذه الآية . (ذكره السيوطي في الدرجة ٥ ص ٤٥ من رواية ابن مردوية عن ابن عباس) .

(قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

امر الله رسوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أن يدعو المنافقين إلى الطاعة الحقيقية التي يمليها الإيمان الصادق بالله ورسوله ، فإن قبلوا النصيحة واهتدوا فذلك خيرهم في الدنيا والآخرة ، وإن يعرضوا فلن يضر ذلك رسول الله شيئا ، فإنما عليه ما حمل من تبليغ الرسالة ـــ وقد بلغها ـــ وعليهم ما حملوا من الإيمان والطاعة ـــ وقد أعرضوا ـــ والرسول ليس مسئولا عن إيمانهم ، وإنما هم المسؤولون : **(وما على الرسول إلا البلاغ المبين)** .

المعنى الاجمـــالي :

لقد اشتملت سورة النور على جملة من الآداب الإسلامية التي يستقيم عليها امر الأسرة وامر المجتمع . وهذه الآداب من هداية الله التي انزلها على رسوله ليخرج الناس بها من الظلمات إلى النور .. فاستقبلتها قلوب المؤمنين بالقبول ، فتأدبوا بها ، وجعلوها في واقع حياتهم ، فكانت عليهم خيرا وبركة .. واغلقت دونها قلوب الكافرين الذين جهروا بكفرهم ، فعاشوا في ظلمات بعضها فوق بعض ، وحبطت اعمالهم ، ولم يقدروا على شيء مما كسبوا ، وكان مصيرهم إلى النار وبئس المصير .. كما أغلقت دونها كذلك قلوب المنافقين الذين جبنوا عن الجهر بالكفر ، واضطروا لمصانعة قوة المؤمنين ، فأظهروا الإسلام بألسنتهم ، ولكنهم لم يتأدبوا بأدبه ، ولم يستقيموا على نهجه ، ومضوا يتلمسون الفرص لإيذاء المسلمين وتعويق نهضتهم ، وما حديث الإفك على ام المؤمنين عائشة منا ببعيد . فلقد خب المنافقون فيه ووضعوا ابتغاء تقويض دعائم المجتمع الإسلامي ، لولا ان الله تعالى احبط كيدهم ورده في نحورهم بالآيات التي نزلت تعلن براءة عائشة ، وتنعي على المنافقين صنيعهم الخبيث ، وتبين ان لكل منهم جزاء ما اقترف من إثم ، وان قائدهم له العذاب العظيم **(لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم)** . النور / ١١ .

وكما تضمنت السورة الكريمة آيات بينات ، يتجلى بها نور الله ، ويتحدد بها الحق والباطل والطيب والخبيث ، وتتكشف في اضوائها احكام الله بلا لبس

ولا غموض .. تضمنت آيات كونية تدل على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، وتوقظ العقول وتهز المشاعر إلى معرفته والإيمان به . حتى تنقطع بذلك معاذير الكافرين والمنافقين .

والآيات التي نحن بصدد تفسيرها تذكر لنا أن المنافقين لم ينتفعوا بهذه الآيات ، وانهم يذكرون الإيمان بالله وبالرسول ويذكرون الطاعة لهما بألسنتهم ، دون ان يكون لأقوالهم مدلول في سلوكهم ، فهم يكذبون بأعمالهم ما يقولونه بأفواههم ، وليس ذلك شأن المؤمنين .. فالمؤمنون تتوافق أفعالهم مع اقوالهم ، ويلتقي عندهم الشعور الباطن بالعقيدة . مع العمل والتحرك في واقع الحياة .

لقد كان هؤلاء المنافقون يحجمون عن التحاكم لرسول الله في المنازعات حين يكونون جائرين على غيرهم بينما يسارعون راضين إليه حين يكونون مظلومين ، لأنهم يعلمون ان حكم الله عدل ، لا يعرف المجاملة ولا يتأثر بالهوى ، ولكنهم ظالمون لا يريدون الخضوع للحق بسبب مرض قلوبهم **(وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق ياتوا إليه مذعنين)** .

وهذا المسلك هو مسلك المنافقين في كل زمان ومكان ، وهم شر مستطير في المجتمعات الإسلامية . جبناء يتظاهرون بالإسلام وأعمالهم تناقضه ، لا يرضون أن تطبق شريعة الإسلام ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، ويعملون على وضع العراقيل في هذا الطريق بكل ما يستطيعون من وسائل اللؤم والكيد والمكر .. وذلك نابع من استعلائهم على الحق ، ورغبتهم في الظلم ، وكراهتهم للعدل . ولا يجتمع الإيمان مع الشرود عن حكم الله **(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)** . النساء / ٦٥ .

وبالمقابلة بين هذا الموقف السيىء من المنافقين وموقف المؤمنين ، نرى أن المؤمنين يتأدبون مع الله ورسوله ، ويرضون حكم الله ، فاذا دعوا إليه قالوا سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون . وشتان بين الموقفين ، موقف الايمان والصدق من جانب المؤمنين ، وموقف الكفر والكذب من جانب المنافقين .

ثم يذكر الله تعالى أن المنافقين يمعنون في التضليل ، ويكثرون من الايمان الكاذبة ليحملوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — على تصديق اقوالهم : **(واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن)** ولكن الله تعالى كشف امرهم حين أمر رسوله بالتهكم بهم والسخرية من حالهم : **(قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تفعلون)** .. وحين امره ان يبين لهم الطريق الصحيح للطاعة ، وهو طريق الإيمان والإخلاص وتحمل المسئولية .. فهم اذا اعرضوا عن قبول النصيحة مسئولون عن كفرهم وسوء ادبهم . اما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فليس عليه إلا البلاغ — وقد بلغ — **(قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين)** .